الشعر الأندلسي

بين التقليد والتجديد

بقلم

الدكتور حسن جاد حسن

الأستاذ المتفرغ بالكلية

يزعم بعض الكتاب أن الأدب الأندلسي أدب تقليدي محض ، لم توح به عاطفة، ولم ينبض به إحساس؛ وإنما أهله عالة على المشارقة فيما يقولون ومايفعلون فما هم بشيء إلا صدى لآثار المشرق وآدابه، وأبواق تتجاوب فيها تلك الأصوات المنبعثة من الشام أو العراق ، فلا ، لحكة ولا وجدان، ولا مواهب ولا إستقلال وإنما هي مشاعر تهجع فتوقد الحواس ، وحب فطري يموت فتمرح في رفاته ديدان الشهوة (١) .

يقول بعضهم ، « إن تقديس الأندلسيين لكل شرقي مما يكاد يلمسه كل مطلع على تاريخهم ، فلقد تغالوا في إجلال الشرق حتى كانوا ينظرون إليه نظرة الابن إلى أبيه، وكان أقصى مايطمح إليه الشاعر الاندلسي هو أن يلقب باسم شاعر شرقي مشهور ، أو أن يقال إنه شبيه بمعاصره الشرقي فلان ... » (٢) .

ويقول الدكتور شوقي ضيف في كتابه (الفن ومذاهبه في الشعر العربي) « والحق أن تأثر الأدب العربي بالأقاليم كان ضئيلا ، بالرغم من إختلاف هذه الأقاليم وتباينها في الخصائص الجغرافية والمميزات الجنسية والعقلية والشعورية ،

---

(١) مقال للعقاد

(٢) نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي لكامل كيلاني ص ١٢١

لأن الأدباء كانوا يخرجون عن حياتهم فى أقاليمهم إلى حياة عامه فى الأدب العربى ، يعيشون فيها على تقليد المثل الأدبية التى خلفها العباسيون ، فالأديب حين كان يحاول أن يكتب أو ينظم يريد أن يكون مثل الأدباء العباسيين ، فهو يكتب نثراً كنثر ابن المقفع أو الجاحظ أو إبن العميد،وهو ينظم شعراً كشعر البحترى أو أبى تمام أو إبن المعتز أو المتنبى ... فقد جمد شعراء الأقاليم عند الأزياء الفنية القديمة التى نسجها البحترى وأبو تمام والمتنبى وأبو العلاءحين إستطاع العباسيون أن يجددوا وأن يحدثوا لهم مواهب فنية متعددة ، غير أننا لا نترهم إلى شعراء الاقاليم حتى تقف تلك القوة ، وينتهى الشعراء إلى التقليد تقليدا لا يبقى لهم اصالة الا وجده ... ولعل الاندلس هى أهم الاقاليم فى تاريخ الشعر العربى ، غير أن من يتعقب الحركة الأدبية هناك يلاحظ أن الشعراء هاعشوا على تقليد المشرق فى فنونه ومذاهب الأدبية فلم تؤسس الأندلس لنفسها نهضة مستقله ، إنما كانت تستمد من بغداد ، ولو أنها بدأت حركة مستقله عقلية لأمكن أن توجد الفوارق بينها وبين غيرها من الأقاليم ، ولكنها غرقت إلى آذانها فى الثقافة العربية العامة التى نهضت بها بغداد ، وآية ذلك أنها لم تقم بها حركة ترجمة كالتى قامت فى الطرق وإن الانسان ليخيل اليه أن الاندلس كانت تقلد المشرق فى جميع نواحى الحياه ... ونحن إذا رجعنا إلى نماذج الشعر نفسها وجدنا كثيرا منها يصاغ على أنماط مشرقية خالصة ، لا تقتصر على المشابهة فى الوزن والروي والأساليب ، وكأنما القصيدة كلها ليست إلا تأليفاً للمواد الفنية التى تركها العباسيون ... ولذلك لم يستطع الشعراء أن يتحولوا بالشعر إلى وجهات جديدة ، فلم تحدث فيه مناهج أو مذاهب غير تلك المناهج والمذاهب العباسية ، ... لقد أنتهى الاندلسيون إلى التقليد ، وعاشوا معيشة تقليدية تعتمد على المحاكاه والتلفيق حتى ليحس الانسان كأنما أصبح الشعر ضربا من القواعد والقوالب الجامدة ... إن الشعراء الأندلسيين لم يستطيعوا أن يحدثوا إتجاها جديدا من الشعر العربى ، وهل عندهم الا التقليد والاطراد مع الأفكار والصور السابقة التى جمدوا عندها ؟ فشخصية الأندلس فى الشعر العربى كشخصية الأقاليم الاخرى ، شخصية ضعيفة باهتة ... » .

- ١ -

كانت الترجمة عملا أساسياً فى الحياة العقلية بالشرق، فقد نقلت ثقافات الأمم المختلفة التى امتزج العرب بها كل الامتزاج . وأخذوا عنها من الحياة الماديه والحياة العقلية ما صبغهم بصبغة جديده فى مظاهر حياتهم العامة ، من الحضارة والترف والنظم السياسيه فى الأدارة والحكم ، والعادات والتقاليد ، وما جدد من ثقافتهم وتفكيرهم وآرائهم تجديداً واضحاً كان أثره أوسع مدى فى الشعر والأدب ، فقد صبغت عقليه الفنيين من الأدباء والشعراء بأصباغ جديدة من العمق والدقه والتحليل وطرافة التقسيم والبعد فى التفكير والخيال ، حتى أصبحنا بازاء صفات عقليه جديده متأثرة بالفلسفة والمنطق وعلوم التنجيم والرياضه والحكم ونحوها من ثقافات اليونان والهند والفرس .

وقد تجلت مظاهر هذا كله واضحة جليه فى الشعر ، ظهرت فى جوانبه الحسيه وطرق صياغته ، وظهرت كذلك فى صياغته الذهنية من تناول الأفكار وتحليلها ، وما يحدث فيها من طرافة ، وما يشيع من عمق ودقه .

وكانت البيئه إلى هذا ميدانا طليقاً يجيش بالنحل المختلفه والفرق والمذاهب الدينية المتعددة . فكانت هذه كلها عوامل أحدثت هذا التغيير فى الطابع المادى والعقلى للفن العربى ، وكان الشعر العربى (وهو صورة الحياة) خليقاً بأن يمثلها وأن يتأثر بها .

نجد ذلك فى مثل قول أبى نواس :

تأمل العين منها ... محاسناً ليس تنفد

فبعضها قد (تناهى) ... وبعضها (يتولد)

(١) راجع الفصل الخامس من الفن ومذاهبه فى الشعر للدكتور شوقى ضيف ابتداء من ص ٢٥٥

وفى مثل قوله فى وصف الخمر :

تحيرت والنجوم وقف ∴ لم يتمكن بها المدار

منهم يذكرون أن النجوم حين خلقها الله تعالى كانت مجتمعه واقفة فى برج ثم سارت ولا تزال تسير حتى تجتمع فى ذلك البرج (١) . ويقول المتنبى :

تناهى سكون الحسن فى حركاتها ∴ وليس لراء وجهها لم يمت عذر

فيستعير الحركه والسكون من الفاظ الفلسفة ، ويقول :

هون على بصر ماشق منظره ∴ فإنما يقظات العين كالحلم

فيشير إلى مذهب السوفسطائيين الذين لا يؤمنون بوجود المحسوسات .

وهكذا كان الشعر المشرقى صورة لهذه الحياة الجديدة ونتيجة طبيعية لتلك الثقافات العقلية المتنوعة .

أما فى الأندلس فقد كانت هناك عناصر فينيقية ورومانية وقوطية ، ولكن هذه العناصر لم تكن ذوات تراث علمى أو أدبى حتى يتأثر به العرب ، ولو كان لهم شىء من ذلك لما استطاعوا أن يفرضوه على العزة العربية التى احتفظت بكيانها فى هذا الإقليم ، باعتبارها السلطة الحاكمة القاهرة ، فلم يكن لهذه العناصر إذن اثر من ناحية الثقافة أو الأدب فى الشعر العربى .

وكذلك كانت هذه البيئة بيئة محافظة واعتزاز ، تعتز بكل ماهو عربى ، وتتحفظ فى عقيدتها وتفكيرها من فنون الفلسفة ، وأهواء النحل والعقائد المختلفه ، لم تخرج عن إطار هذا التحفظ إلا شذوذاً ، أو حين انحلت رابطتها العربية ، وحلت الفوضى ، وأبيح ما كان محرماً . فنجد ابن هانىء لصلته بالفاطميين واعتناقه مذهبهم يقول فى مبالغه وتشيع للمعز :

حل برقادة المسيخ ∴ حل بها آدم ونوح

أو يتأثر بفكرة الحلول فيقول .

أنت الورى فاعمر حياة الورى ∴ باسم من الدعوة مشتق

ونجد ابن حزم الظاهري يقول مخاطباً عاذله في الهوى :

ألم تر أني ظاهري وأنني ∴ على ما أرى حتى يقوم دليل

ويقـول :

هل الدهر إلا ماعرفنا وأنكرنا ∴ فجائعه تبقى ولذاته تفنى

كأن الذي كنا نسر بكونه ∴ إذا حققته النفس لفظ بلا معنى

بيد أن الأدب الأندلسي في جملته ، أو الأدب الذي نعتد به وهو مايصور بيئته ، ويصدق في تصويرها ، لم يتناول شيئاً من تلك المذاهب أو العقائد أو الفلسفات التي كانت تأباها الأندلس وتنفر منها

كانت طبيعة الأندلس في جمالها ، وحضارتها في عظمتها خليقة بأن تلهم الشعراء الوصف ، فوصفوا وأبدعوا ، وكانت البيئة في عروبتها وتحفظها مؤثرة فيمن تنشئهم من الشعراء ، فكانوا مثلا صادقاً لها . فكيف نطالبهم إذن أن يصوروا مالم يحسوا به ومالم يعتقدوه ؟ وكيف نلزمهم أن يكذبوا على بيئتهم ، فيحدثوا عن المذاهب والنحل والمنطق والفلسفة ، وعن مظاهر حياة الفرس والروم والهند .

إن الشعر تعبير جميل عن الشعور الصادق ، وقد عبر الشعراء الأندلسيون أجمل تعبير عما يحسونه ومايشعرون به ، ولو طلبناهم أكثر من هذا لخرجوا « عن حياتهم في أقاليمهم إلى حياة عامة في الأدب العربي يعيشون فيها على التقاليد والمحاكاة » فما هذه المذاهب التي قصروا فيها أو التي تنقصهم ؟ إنك حمل الشاعر على أن يقول غير مايفيض به شعوره حمل له على أن يحطم « قيثارة » الشعر ، وأن يقول كلاماً لاتفيض به عنده عاطفة ، ولا ينبض له به قلب .

- ٢ -

لا شك أن الدولة العربية بالأندلس كانت مناهضة لمثيلها بالمشرق فكان من الطبيعي أن ينافسوا في حياتهم السياسية الحياة السياسية في بغداد ، وأن يلقبوا أمراءهم بالألقاب المشرقية ، كالمتوكل والمعتمد والمعتضد ونحوها ، وأن ينتحل وزراؤهم لقب ذو الوزارتين أمتثالا لاسم صاعد بن مخلد وزير بنى العباس ، وأول من تسمى به منهم وزير الناصر أبو عامر بن شهيد جد الكاتب الشاعر أبي عامر بن شهيد صاحب (التوابع والزوابع) ، وكان من الطبيعي كذلك أن تستلزم هذه المنافسة السياسية المتنافسة في مظاهر الحياة العامة ، فهم يطلقون على كثير من بلدانهم أسماء مشرقية ، كما أنهم يحفلون بالغناء والموسيقى على نحو ما كان في بلاط الرشيد والمأمون ، ويتأثرون في حياتهم العقلية والأدبية بالمشرق ، ولعل هذا كما يقول الرافعي : « لأن الأدب العراقي ممتاز بمتانة اللغة لقربه من البادية ولاستفحال الرواية هناك ولكونه أصلا (١) .

وقد تتبع صاحب نفح الطيب في ثبتين طويلين أسماء من رحلوا من الاندلس إلى المشرق للتزود بالعلم ، ومن رحلوا من المشرق إلى الاندلس طلبا للثروة أو المجد أو الشهرة ، ولسنا ننكر أن كثيراً من الكتب الأدبية عند الأندلسيين قد صيغ على شكل الكتب الأبية عند المشارقة : « يصاغ العقد الفريد على شكل عيون الأخبار ، ويراه الصاحب بن عباد فيقول « هذه بضاعتنا ردت إلينا » .

ويصاغ كتاب الذخيرة لابن بسام على شكل كتاب « اليتيمة » للثعالبي (٢) وهكذا حتى إن الاندلسيين كانوا يلقبون نابغيهم بأسماء المشارقة ، على نحو ما لقبوا به الأمراء والخلفاء ، فالرصافي عندهم ابن رومي الاندلس ،

---

(١) تاريخ الادب العربي للرافعي ح ٣ - ص ٢٦٢ .

(٢) تاريخ الأدب العربي للثعالبي ج ٣ - ص ٢٦٢

وابن هانئ مفتي المغرب ، ومحمد بن سعيد أصمعي الأندلس ، وابن باجه الفيلسوف فارابي الأندلس ، وحمدونة بنت زياد خنساء المغرب ، وابن زيدون بحتري المغرب . . . الخ .

هذا هو مدى التقليد عند الأندلسيين : منافسة في الملك والسياسة تبعتها المنافسة في مظاهر هذا الملك وما يستلزمه من الحياة العلمية والأدبية ، وهذا ما عناه ابن بسام حين يقول : « إلا أن أهل هذا الافق أبوا إلا متابعة أهل المشرق ، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة ، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب ، أو طن بأقصى الشام أو العراق ذباب ، لجثوا على هذا صنما ، وتلوا ذلك كتابا محكما » (١) .

أما الشعر فانه لم يقصده كما زعم الزاعمون ، فهو يقول قبل هذه الفقرة في وصف أهل أفقه : « لعبوا بأطراف الكلام المشقق لعب الدجى يحفون المؤرق ، وخدوا بفنون السحر المنمق حداء الاعشى بينات الحلق ؟ نزلوا رآة البديع لنسي اسمه ونظم لو سمعه كثير ما نسب ولا مدح ؛ أو تتبعه جرول ما هوى ولا نبح » . ويقول بعد ذلك : « إنهم رءوس شعر وكتابه ، تدفقوا فأنسوا البحور ، وأشرقوا فباروا الشموس والبدور » (٢) .

فمن زعم أن شعر الاندلسيين ـ ككل مظاهر حياتهم ـ يغيب في سواه التقليد ويدخل في شعر الاقاليم الاخرى ، بحيث يشتبه النسيج ، وتلتحم الديباجة ، فهو لا يعرف الشعر إلا بأوزانه ؛ ولا يميز غير ظاهره ، فان للشعر بنوع خاص دون سائر العلوم والمعارف « روحا كروح الانسان تستوي مع الجنس كله في جملة الاخلاق وتختلف في مفرداتها ، حتى لقد يجد اللبيب الحاذق من التفاوت بين أنواع الاشعار إذا هوا ستقرأها ؛ وتقصص تواريخ أصحابها ، ما يصح أن يخرج منه بعلم يسمى علم الفراسة الشعرية (٣) .

---

١ الذخيرة ج ١ ـ ص ٢ ٢ الذخيرة ج ١ ـ ص ٣

(٣) تاريخ الادب للرافعي ج ٣ ـ ص ٣١١ .

الشعر ملكة طبيعية لا تتأتى بالمحاكاة ، وموهبة من المواهب التي لا يخص الله بها جيلا دون جيل ، ولا إقليما دون إقليم ، فحيث جرت مع الدم في جسم صاحبها ، ونبض بها حسه ، وتفتحت لها نفسه ، انطلق كالطائر الغرد ، يصدر عنه الشعر دون تكلف ، كما لابد لابن الدوح أن يترنم . ثم إن معظم الشعراء الاندلسيين عروب جرى الشعر في دمائهم ، وهاجر معهم إلى هذه الجزيرة ، وأية بيئة أصلح للتغريد من الاندلس ؟ لقد كانت آفاقها العاطرة ومغانيها الزاهرة ، وحضارتها الساحرة جمالا يهز المشاعر ، ويوقظ العواطف وينبه غافي الحس ، ويحرك خواطر النفس — وكانت (الظروف) التي تحيط بالشعراء ككل «الظروف» التي تحيط بهم في كل أرض وكل إقليم ، فلو انهم عاشوا في عزلة تامة عن المشارقة ، فهل نستطيع أن نحرمهم عاطفة الحب مثلا وهي عاطفة يوحي بها الطبع ، وتدعو إليها حرارة الشباب ، فلا يكون الغزل غرضاً من أغراضهم ؟ أو هل نستطيع أن نغفل احساسهم بمظاهر الجمال التي يشعرون بها في هذا الأفق ؟ وهل نمنعهم من المدح وهو أمر تقتضيه الحياة وتدعو إليه صلة الشعراء بالملوك ؟ وهل نكذب شاعراً كابن زيدون مثلا في احساسه بالحب ؛ أو شعوره بألم السجن ، ونقول أنه مقلد لأن المشارقة من أحب فعبر عن الحب ، ومن سجن قصور ظلمة السجن ؟ .

الحق أن الشعر من حيث هو شعور النفس ، وأغنية الحس ، موهبة طليقة لا يحدها زمان ولا مكان ، ومن أولى من الاندلسيين به وبيئتهم هي في نفسها معاني الشعر وينبوعه ؟ .

يقول ياقوت في الحديث عن مدينة « شلب » : « وسمعت ممن لا أحصي أنه قل أن ترى من أهلها من لا يقول الشعر ، ولا يعاني الادب ؛ ولقد مررت بالفلاح خلف فدانه ، وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه وأي معنى طلبت منه » ، فهل كان ذلك الفلاح متأثراً في هذا بالمشارقة ، أم هو الاحساس الطبيعي في نفسه ، والدافع الغريزي في دمه ؟ .

وهم يتحدثون كذلك أن ابن عمار مر على قصاب أمي فقال له . « لحم سياط الخراف مهزول » فأجابه القصاب على البديهة « يقول للمفلسين مه زولوا ويلتقى بابن الصباغ ، فيكشف له عن ساعده ، ويختبر بديهته ، فيقول : « ما بين زند وزند» فيجيبه « ما بين وصل وصد» .

ويذكرون أن المعتمد ركب فى النهر مع ابن عمار وقد زردت الريح النهر ، فقال المعتمد لابن عمار أجز: «صنع الريح من الماء زرد» ففكر ابن عمار فقالت امرأة من الغسالات «أى درع لقتال لو جمد» فتعجب المعتمد ونظر إليها فاذا هى فى غاية الحسن ، فتزوجها (١) . ومهما يكن من شيء فان هذا يدل على تغلغل الروح الشعرى حتى فى نفوس العوام ، وأن هذه البيئة كانت من أصلح البيئات لنضج الشاعرية ، وما ظنك بأفق يلهم الشواعر وينطق العذارى بالحب والجمال .

يقول سعانلى بول : « ويظهر أن العالم الاسلامى اتجه بروحانية إلى آلهة الفنون ، فمن الخليفة فى عرشه إلى النوتى فى سفينته ، كنت تسمع النظم الفائق فى مشاهد الاندلس ، وجمال مدنها ، ثم فى روعة خرير الانهار وسحر الليل الساجى وقد هدأت فيه النجوم ، ثم فى نشوة الحب والخمر ومجتمع الانس وقد اختلس المحب ساعة لقاه بفاتنته التى ترمى بقوس حاجبها القلوب» (١)

هل نستطيع القول بأن المعتمد بن عباد يقلد فى عاطفته المشبوبه وهو يصور محنته ويعبر عن مأساته وهو يعانى آلام السجن ضراوة القيد وقد دعا له الوزير الطبيب أبو العلاء زهر بطول البقاء فجاشت نفسه المكروبة لهذا الدعاء ، وانطلق لسانه بهذا الشعر المفجع الحزين :

دعا لى بالبقاء وكيف يهوى ∴ أسير أن يطول به الشقاء ؟!
أليس الموت أروح من حياة ∴ يطول على الشقى بها الشقاء ؟!
أأرغب أن أعيش أرى بناتى ∴ عوارى قد أضر بها الحفاء ؟!

خوادم بنت من قد كان أعلى ∴ مراتبه إذا أبدو النداء
ولكن الدعاء إذا دعاه ∴ ضمير مخلص نفع الدعاء

إن المعتمد قد عرف كيف يصدع القلوب بأناته ، ويهز المشاعر بزفراته ، وكيف وقد أصبح بعد الملك والسلطان يرزح تحت عبء الذل والهوان ؟ هاهو ذا ولده أبو هاشم يدخل عليه فى محنة سجنه وقد عضت القيود بساقيه عض الأساود وهو لا يطيق إعمال قدم، ولا يريق دمعاً إلا ممزوجاً بدم فلما رأى ابنه استعبر وقال

قيدى أما تعلنى مسلما ∴ أبيت أن تشفق أو ترحما
دمى شراب لك واللحم قد ∴ أكلته لا تهشم الأعظما
يبصرنى فيك أبو هاشم ∴ فينثنى والقلب قد هشما
أرحم طفيلا طائشا لسببه ∴ لم يخشى أن يأتيك مسترحما
وارحم أخياب له مثله ∴ جرعتهن السم والعلقما

أليست هذه نفس شاعر عرف كيف يعبر عما يجول فى نفسه من المعانى ، ويصف آلامه وأحزانه بلا تكلف أو تعمل ؟ وهل كان يقلد فى هذا الاحساس أو يكذب فى هذا الشعور ؟ لقد برح به الألم فأنطقه هذا الشعر ، وأذله القيد فسكب تلك الدموع ونحن فى هذا المقام إنما ندلل فقط على صدق الاحساس وصحة الشعور ، وقد تم لنا هذا فى شعر المعتمد بقطع النظر عن (بساطة) التعبير ولين الأداء :

فاذا طالبنا الروعه فى الأسلوب ، والجزاله فى اللفظ إلى جانب هذا الاحساس ، فإليك قصيدة اخترتها بالذات لأن بعض الكتاب يتهم صاحبها بالتقليد فيها ، لماذا ؟ لأنها على وزن قصيدة لأبى نواس ! ! أو لأنها قيلت فى المدح ، وستقرأ هذه القصيدة أو بعضها فتجدها فى غايه السبك وحسن البيان ، وروعة التصوير . وصدق العاطفة التى تجيش بالأبوة الحانية والاشفاق الرحيم كما تحس فيها صدق العزيمة ، وروح الشهامة ، وقوة الجلد إلى جانب ما ترسمه من صورة الطفوله ومناغاتها وأشواقها وصراعه الذى يعانيه بين حبه لولده ، ووداعه له فى سبيل المجد ، يقول ابن دراج القسطلى .

ولما تدانت للوداع وقد هفا ∴ بصبرى منها أنة وزفير

تناشدنى عهد المودة والهوى ∴ وفى المهد مبغوم النداء صغير

عيى بمرجوع الخطاب ولحظه ∴ بموقع أهواء النفوس خبير

تبوأ ممنوع القلوب ومهدت ∴ له أذرع محفوفة ونحور

فكل مفداة الترائب مرضع ∴ وكل محياة المحاسن ظير

عصيت شفيع النفس فيه قادنى ∴ رواح بتدآب السرى وبكور

وطار جناح البين بى وهفت بها ∴ جوانح من ذعر الفراق تطير

ولو شاهدتنى والهواجر تلتظى ∴ على ورقراق السحاب يمور

أساقط حر الهاجرت إذا سطا ∴ على حر وجهى والأصيل هجير

واستنشق النكباء وهى بوارح ∴ واستوطىء الرمضاء وهى تفور

وللموت فى عين الجبان تلون ∴ وللذعر فى سمع الجرىء صفير

لبان لها أنى من البين جازع ∴ وأنى على مض الخطوب صبور

— ٣ —

وعجيب أمر هؤلاء الواهمين حين يتعلقون بالقشور ، ويستندون إلى المظاهر ؛ وأعجب العجب أن يتحكموا فى القوافى والأوزان فهم يحاولون أن يقصروها على فريق من الشعراء دون فريق ، ولو كان الأمر أمرهم لوقف الشعر العربى عند العصر الجاهلى ، لأن الشعراء الجاهليين قد استنفدوا الأوزان والقوافى ، فلا يصح لشاعر أن ينظم بعدهم .

حين ينظم ابن دراج قصيدته :

أم تعلمى أن الثواء هو القوى ... وأن بيوت العاجزين قبور

يقولون إنها على نمط قصيدة أبى نواس :

أجارة بيتينا أبوك غيور ... وميسور ما يرجى لديك عسير

وحين يقول ابن زيدون :

أضحى التنائى بديلا من تدانينا ... ونأب عن طيب لقيانا تجافينا

يقولون إنها على نمط قصيدة البحترى :

يكاد عاذلنا فى الحب يغرينا ... فما لجاجك فى عذل المجينا

وحين يقول ابن خفاجه :

قل لمسرى الريح من أضم ... ولياليها بذى سلم

يقولون إنها على نمط قصيدة أبى نواس :

يا شقيق النفس من حكم ... قمت عن ليلى ولم أنم

ويقصدون بالنمط التقليدى فى كل شىء فى القصيدة تبعا للتقليد فى الوزن والروى حتى لو كان الغرض مختلفا ، والمعانى متباينة ، فهم يكتفون بالنظرة

العجلى التى تقع على نوع البحر والروى ليحكموا على كل عناصر القصيدة بالتقليد

ولو أننا قلبنا دواوين الشعراء منذ وجد الشعر لوجدنا الكثير من هذه المشابهات فى الوزن والروى، إما عن غير قصد فتكون عضواً ومن حق الشاعر، أو عن قصد فتكون معارضه ومنافسة يعتد بها الشاعر ويفخر، لا محاكاة أو تقليداً.

الحق أن الشعر لا يقاس بالوزن ولا بالروى، فإن البحور والقوافى ملك الشعراء جميعاً، وإنما الشأن للصياغة والمعنى والشعور.

ولو كان الأندلسيون جامدين على التقليد، واقفين عند حدوده، لما أحدثوا هذا الحدث الجديد فى الأوزان الشعرية، فقد عاشت الأندلس فى ترف أحدث عندها اهتماماً بشعر الطبيعة، كما أحدث عندها نهضة واسعة فى الغناء، نشأت مع رحيل زرياب وغيره من أمثال فضل وعلم وقلم وقمر والعجفاء (١) فشاع الغناء وشاعت الموسيقى، وكثر المغنون والمغنيات، فأحدث ذلك فى الشعر تلك الموشحات والأزجال، لأن أوزانها أحفل بالتلحين من الأوزان المعروفة، وبذلك استطاعوا أن يتجاوبوا مع بيئتهم، وما كان فيها من ترف ولذة ونعيم. فقد كان منهم من ينظم ويلحن ويغنى كأبى الصلت أمية بن عبد العزيز الأشبيلى المتوفى سنه ٥٢٣ هـ، وهو الذى لحن الأغانى الأفريقيه (٢)، وكالفيلسوف أبى بكر بن باجه الغرناطى صاحب كتاب الموسيقى وغيرهما.

وهكذا كانت عنايتهم بالألحان وإختراع الأوزان المناسبة لها، بما أوتوه من لطف ذوق، ورهافة حس؛ وهذه الألحان هى التى جعلت شعرهم — كما يقول الرافعى — كأنه نفوس تقطر أو تسيل.

---

(١) نفح الطيب حـ ٢ ص ٧٥٨

(٢) المرجع السابق حـ ١ ص ٣٧٢

— ٤ —

ونعود إلى المعانى فنجدهم يعيبون على الأندلسيين تناولهم معانى السابقين من الشعراء ونحن نعلم أن امرأ القيس كان يبكى الديار كما بكى ابن خذام، وأن زهيراً كان يرى أن الشعراء لايقولون إلا المعاد ، وأن عنترة كان يعترف بأن الشعراء لم يغادروا من متردم وإذن فتداول المعانى بين الشعراء أمر ليس بالجديد ولا بالغريب . وقد نشأ عن هـذا التداول ذلك البحث الواسع الذى نجده فى كتب النقد العربى ، ونجد النقاد يحسون أن هـذا الجانب ضرورى فى الشعر ، حتى إن صاحب الصناعتين يقول : « ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تداول المعانى ممن تقدمهم ، والعيب على قوالبهم (١)

ويقول الجاحظ : « نظرنا فى الشعر القديم والحديث فوجدنا المعانى تقلب ويوخذ بعضها من بعض » « ولا يعلم فى الأرض شاعر متقدم فى تشبيه مصيب أو معنى غريب إلا وكل من جاء من الشعراء من بعده إن هـو لم يقدر على لفظه فيسرقه أو يدعيه فإنه لايدع أن يستعين بالمعنى » (٢)

ويحدثنا صاحب الأغانى أن مروان بن أبى حفصه قال : « دخلت على الوليد بن يزيد أنا وطريح بن إسماعيل الثقفى والحسن بن مطير فى جماعة من الشعراء ، واذا رجل عنده كلما أنشد شاعر شعراً وقف الوليد على بيت بيت من شعره وقال: « هذا أخذه من موضع كذا وكذا ، وهذا المعنى نقله من موضع كذا وكذا من شعر فلان حتى أتى على أكثر الشعراء، فقلت من هذا ؟ قالوا : حماد الراويه (٣) .

وكأنما كان تداول المعانى ضرورة من ضرورات الفن الشعرى ، أو خاصه من خواصه حتى إن بعض النقاد يهمل جانبها ولا ينظر إليها كعنصر من

---

(١) ص ١٨٦ (٢) الحيوان حـ ٣ ص ٩٦

(٣) أغانى دار الكتب حـ ٦ ص ٧١

عناصره ، فالجاحظ يقول : « إن المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العربى والعجمى والقروى والبدوي وإنما الشأن فى إقامة الوزن، وتخيير اللفظ وسهولة المخرج وفى صحة الطبع وجودة السبك (١) . ويقول صاحب الصناعتين : « المعانى مشتركة بين الفضلاء ،فربما وقع المعنى الجيد للسوقي والنبطى والزنجى وإنما يتفاضل الناس فى الألفاظ ورصفها وتأليفها ونظمها » (١) .

ويقول الآمدي : « وليس الشعر عند أهل العلم به إلا حسن التأتى وقرب المأخذ واختيار الكلام ووضع الألفاظ فى مواضعها،فإن اتفق مع هذا معنى لطيف فذلك زائد فى بهاء الكلام،والإفادة قام الكلام بنفسه واستغنى عما سواه » (٢)

ويقول ابن خلدون : « إن صناعته الكلام نظماً ونثراً إنما هى الألفاظ لا فى المعانى » (٣) .

وعلى هذا تداول الشعراء المعانى من قديم الزمان .

يقول أبو نواس :

فقام والليل يجلوه الصباح كما ... جلا التبسم عن غر الثنيات

فيقول ابن الرومى فى جاريه :

يفتر ذاك اللواك عن يقق ... مين ثغرها كاللالىء النسق

كأنها والمزاج يضحكها ... ليل تعرى دجاه عن فلق

ويقول أبو تمام :

فإن تك قد نالتك أطراف وعكة ... فلا عجب قد يوعك الأسد الورد

---

(١) الصناعتين ص ١٨٦ (٢) الموازنه ص ٢١١

(٣) الوساطة ص ١٧٠

فيقول البحتري :

وما الكلب محموداً وإن طال عمره ∴ ألا إنما الحمى على الأسد الورد

ولست أطيل في هذا النوع من التداول الذي يحدث جديداً في المعنى أو تحويراً فيه ، وإنما أريد أن أعرض لنوع آخر مما إتسم به بعض الشعراء ، فإنه كان السمة العامة لمعاني الأندلسيه ، ذلك هو عرض المعنى في ثوب جديد والتأنق في رسمه وتلوينه ، حتى إنك لتنسى أصله وتحسبه معنى جديداً ، وإحساساً طريفاً . فهم يأخذونه بالتحوير أو النقص أو الزيادة أو الشرح حتى تحس بشخصيتهم فيه واضحه جليه ، وتعترف لهم بالتجديد في هذا التصرف ، وماذا نطلب منهم غير هذا ؟ يقول صاحب الوساطه : « ومتى إنصفت علمت أن أهل عصرنا ثم العصر الذي بعدنا أقرب إلى المعذره ، وأبعد من المذمه ، لأن من تقدمنا قد استغرق المعاني وسبق إليها وأتى على معظمها .. ومتى أجهد أحدنا نفسه وأعمل فكره وأتعب خاطره وذهنه في تحصيل معنى يظنه غريباً مبتدعاً ، ثم تصفح عنه الدواوين لم يحظ أن يجده بعينه أو يجد له مثالا يغض من حسنه » (١) .

فكيف وقد بذ الأندسيون غيرهم في المعاني القديمة فضلا عما استمدوه من بيئتهم الجميلة من معان جديدة ، هي من وحي طبيعتهم الشاعره الساحرة ؟

يقول طفيل :

وجعلت كوري فوق ناجيه ∴ يقظات شحم سنامها الرحل

ويقول أبو تمام :

رعته الفيافي بعد ما كان حقبة ∴ رعاها وماء الروض ينهل ساكبه

فنجد التجديد في المعنى والابتكار فيه ، لأنري فقط سنا مايرعاه الرحل ، بل نجد بعيراً يرعى ويرعى ؛ يرعى الفيافي وترعاه الفيافي . وهكذا يتفلسف أبو تمام ، فينسبك أصل المعنى ويخرجه لك في صورة طريفه .

---

(١) الوساطة ص ١٧٠

ويقول المتنبى :

كفى بجسمى نحولا أنى رجل ... لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

وقد يكون هذا معقولا بعض الشيء ،فقد يضعف البصر فلا يرى ولكن مارأيك فى قول الخبز أرزى :

ذبت من الشوق فلوزج بى ... فى مقلة النائم لم ينتبه

وكان لى فيما مضى خاتم ... فالآن لو شئت تمنطقت به

وقد شغل الشعراء من زمن بعض خاص من معانى الفروسيه والشجاعة والنصر ، هو أن الطير قد وثقت من بسالة الممدوح وبطولته ، فهى تتبعه فى كل ميدان ثقة منها أنها تغدو معه خماصا وتعود بطانا.

قال الأفوه الاودى :

وترى الطير على آثارنا ... رأى عين ثقة أن ستمار

وقد ظن النابغه أن الطير فى هذا البيت ربما غار من أشلاء الممدوح لابن أعدائه فاحتاط لذلك وكان أكثر وضوحاً حيث يقول :

إذا ماغزا بالجيش حلق فوقه ... عصائب طير تهتدى بعصائب

تزاهن خلف القوم خزراً عيونها ... جلوس الشيوخ فى ثياب المرانب

جوانح قد أيقن أن قبيله ... إذا ما التقى الجيشان أو غالب

وربما لم يزد أبو نواس عن الأفوه حيث يقول :

تتأبى الطير غدوتها ... ثقة بالشبع من جزره

أما صريع الغوانى فقد اكتفى بالاشارة إلى عادة الممدوح من النصر وهى إشارة تغنى عن كل أطناب .

قد عود الطير عادات وثقن بها ∴ فهن يتبعنه فى كل مرتحل

وأما أبو تمام فلم يشر إلى أن الطير قد إعتادت من الممدوح عادة ، أو وثقت من نصره ، أو تبعته ، بل اكتفى بوضعها وهى تظلل أعلامه ، وربما كان وقوفها إلى جانب - يشه مصادفة من المصادفات :

وقد ظللت عقبان أعلامه ضحى ∴ بعقبان طير فى الدماء نواهل

أقامت مع الرايات حتى كأنها ∴ من الجيش إلا أنها لم تقاتل

ويجىء الشاعر الأندلسى بعد هذا : فيسأل النابغه فارس هذه الحلبه : ماذا يعنى الطير إذا شبعت أى القبيلين الغالب ؟ ثم يخلص هذا المعنى كله ويزيد فيه فيقول :

وتدرى سباع الطير أن كماته ∴ إذا لقيت صيد الكماة سباع

لهن لعاب فى الهواء وهزة ∴ إذا جد بين الدارعين قراع

تطير جياعاً فوقه وتردها ∴ ظباه الى الاوكار وهى شباع

تملك بالاحسان ربة رقها ∴ منهن رقيق يشترى ويباع

وألحم من أفراضها منهى طوعه ∴ لدى كل حرب والملوك تطاع

تعاصع جرحاها فيجهز نقرها ∴ عليهم وللطير الفتاق مصاع

ويقول امرؤ القيس :

سموت اليها بعد مانام أهلها ∴ سمو حباب الماء حالا على حال

فيقصر عنه ابن أبى ربيعه ، ولا يسمو هذا السمو حيث يقول :

ونقضت عنى النوم أقبات مشيه الـ ∴ صباب وركنى خيفة القوم أزور

وأنشد بعضهم لابى دهبل الجمحى :

قالت لقد أعييتنا حجة .·. فأت إذا ما هجع السامر

وأسقط علينا كسقوط الندى .·. ليلة لا ناه ولا زاجر

ومع أن قوله (كسقوط الندى) فى غايه الجمال — إلا أن الندى مع لطفه وصفائه ورقته قد يوقظ السامر الهاجع ، كما أزعجه (حباب) ابن أبى ربيعة خافظ الى ابن شهيد الاندلسى كيف يتلطف فى التوصل ، فيدب دبيب الكرى الذي لا يحس ويسمو سمو النفس الذى لا يرى .

ولما تملا من سكره .·. ونام ونامت عيون العسس

دنوت إليه على بعده .·. دنو رفيق درى ما التمس

أدب اليه دبيب الكرى .·. وأسمو إليه سمو النفس

ويقول أبو نواس :

عرضن للذى تحب بحب .·. ثم دعه يروضه ابليس

فيوجه ابن حزم هذا المعنى توجيها حسنا فى طريق الخير شارحا ومعللا :

ابن قول وجه الحق فى نفس سامع .·. ودعه فنور الحق يسرى ويشرق

سيؤنسه رفقا فينسى نفاره .·. كما نسى القيد الموثق مطلق

ويقول أبو العلاء فى ذكر السيف :

ودبت فوقه حمر المنايا .·. ولكن بعدما مسخت نمالا

فينقله ابن وهبون إلى وصف العذار حيث يقول :

ومعذرين كأنما بخدودهم .·. طرق العيون ومنهج الأرواح

وكأنما صقلوا الجمال وأظهروا .·. مشى النمال على متون صفاح

ويقول ابن الرومى :

تأمل العين منهـــا ∴ محاسنا ليس تنفـــد

فلا يفيد العين أدامت النظر حتى تتحقق من عدم نفاد المحاسن .

ويقول أبو نواس :

يزيـدك وجهـه حسنـا ∴ إذا مازدتـه نظـراً

فلا تفهمنا (إذا) تـكرار النظر والتفنن فيه لادراك المحاسن المتجددة . وكلا البيتين يفيد أن المحاسن على كثرتها لا تستعصى على النظر ، ولا يصعب عليه إستيفاؤها وملاحقتها . ولـكن ابن زيدون يدق فى هذا المعنى ، حتى يرينا الحسن ألوانا وأفانين تقصر عنها ألوان النظر وأفانينه ، فلا يلاحقها خطوه خطوه كما فى بيت أبى نواس ، بل يكل فيقف فى الطريق :

حسن أفانين لم تستوف أعيننا ∴ غاياته بأفانين من النظر

ولم يفت الأندلسيين أنفسهم أن يتلاعب بعضهم بمعانى بعض ، كما قال ابن وهبون فى أمرد التحمى :

دعوت دعاء مظلوم عليه ∴ وكان الله مستمعاً مجيباً

فطوقه الزمان بما جناه ∴ وعلق فى عذار به الذنوبا

فقال أبو بكر الدانى :

وليس ذاك العذار شعراً ∴ لـكنما سـره عجيب

لما أراق الدماء ظلما ∴ بدت على خـده الذنوب

وهكذا كان حسن التعليل والتفنن والإبداع فيه والإكثار منه سمة من من سماتهم ، وباباً من أبواب تجديدهم فى المعانى ، وفتنانهم فى التشبيهات وامعانهم فى الخيال ، قال إبن ساره الشنترينى :

لم يكس عارضه السواد وإنما ∴ نثرت عليه سوادها الأحداق

وقال ابن حمديس فى وصف نهر :

جريح بأطراف الحصى كلما جرى ∴ عليه شكا أوجاعه بخريرة

وكثيراً مايعمدون إلى التشبيه العادى المكرور ، فيضفون عليه أزياء جديدة تربكه جديداً طريفاً . فتشبيه الثغر بالأقاح معروف مبتذل ؛ ولكن ابن الزقاق يحتال لهذا التشبيه حتى ينسيك أنه قديم فى هذه المحاورة الطريفة :

وأغيد طاف بالكؤوس ضحى ∴ وحثها والصباح قد وضحاً

والروض أهدى لنا شقائقه ∴ وآسه العنبرى قد نفحاً

قلنا وأين الأقاح قال لنا ∴ أودعته ثغر من سقى القدحا

يظل ساقى المدام يجحد ما ∴ قال فلما تبسم افتضحاً

على أن طبيعتهم الجميلة أبت عليهم حين وصفوها أن تلبس ماخلفه الشعراء من قديم المعانى ، مهما إبتدعوا فى تخطيطها وتجديدها ، فألهمتهم من حسنها البكر معانى عذراء . يقول ابن عمار :

روض كأن النهر فيه معصم ∴ صاف أطل على رداء أخضرا

ويقول ابن خفاجه فى مثل هذا النهر :

متعطف مثل السوار كأنه ∴ والزهر يكنفه مجر سماء

وغدن تحف به الغصون كأنها ∴ هدب تحف عقلة زرقاء

ويقول أبو بكر الدانى فى (ميورقه) :

بلد أعارته الحمامة طوقها ∴ وكساه حلة رلسة الطاووس

فكأنما الأنهار فيه مدامة ∴ وكأن ساحات الديار كؤوس

وقال صاعد فى وصف وردة لم يتم تفتحها :

أتتــك أبا عـــامر وردة ∴ يذكرك المســك أنفاسها
كعذراء أبصرهــا مبصـر ∴ فغطت بأكمامها راسهـا

وقال الاعمى التطيلى يصف تمثال أسد يمج ماء من فمه :

أســد ولو انى أنــا ∴ قشــه الحساب تعلمت صخـرة
وكـأنه أســد المها ∴ ء يمـج من فيـه المجـرة

ويقول ابن خفاجة فى وصف نهر :

وأدهم من جياد الماء نهــر ∴ ينازع جـلـه ريـح رخاء
إذا بدت الكواكب فيـه غرقى ∴ رأيت المـاء تحسـده السماء

وحسبى أن أعرض هذه اللوحة الفنية الرائعة لواد من أودية النزهة يدل على ابتكار المعانى فى الطبيعة والافتنان فى وصفها وإجادة التشبيه فيها . تقول حمدونه بنت زياد :

وقانـا لفحـة الرمضاء واد ∴ سقـاه مضاعف الغيث العميـم
حللنـا دوحـة فحنـا علينا ∴ حنـو المرضعـات على الفطيم
وأرشفنـا على ظمـأ زلالا ∴ ألذ مـن المـدامة للنـديم
يصـد الشمس انى واجهتنا ∴ فيحجبهـا ويـأذن للنسـيم
يروع حصاه حاليـة العذارى ∴ فتلمس جانب العقـد النظيم

الا يخيل إليك حين تسمع هـذا الشعر أنك تخطر فى ذلك الروض البليل بين أنواره وأزهاره خطران النسيم بين ظلاله وأشجاره ، وإنك ترى بعينيك أولئك العذارى السانحات وقد راعهن منظر الحصباء اللامع فوق تلك الديباجة الخضراء فتولهن وفزعن الى جوانب عقودهن يلمسنها بأطراف بنانهن يحسبن أن قد وهت فانتثرت حباتها فى ذلك الروض الاريض .

وأخيراً نستطيع أن نقول إن للاندلسيين شخصية واضحة فى شعرهم استمدوها من بيئتهم ، وتجاوبوا فيها مع طبيعة بلادهم التى كانت مصدر الهامهم ومسرح خيالهم ، فقد صنعت أذهانهم ، وسما وجدانهم ، وعذب بيانهم ، فهذبوا الشعر وتأنقوا فى ألفاظه ، وتصرفوا فى معانيه ، ونوعوا فى قوافيه ، وتفننوا فى خياله ، ودبجوه تدبيج الزهر ، وسلسلوه سلسلة النهر ، واكثروا من نظمه فى البحور الخفيفة القصيرة .

وليس يعيبهم تناول المعانى القديمة فى شعرهم ، فقد لونوها تلويناً يصور بيئتهم ، وأبرزوا بالتجديد فيها شخصيتهم ، وليس الفن فى الابداع والاختراع بقدر ماهو فى حسن التأليف ودقة الانسجام ، وإنما يمتاز الشاعر على الشاعر إذا اشتركا فى معنى بما يبدعه أحدهما من الألوان وما يوفق إليه من التعبير عن ظلال المعانى ودقائقها .

ولقد شهد المستشرق الانجليزى (يشكوف) للشعر الأندلسي وما فيه من وجدان رقيق ، وتلوين للاحساس يجعله جديداً ، حيث يقول « ولعل أمتع ميزات الشعر الأسبانى هو ذلك الوجدان العاطفى الرقيق الذى يندر وجود مثله فى النسيب ، والذي ظهر كثيرا فى أغانيهم عن الحب ، وهو وجدان لا يقتصر على تصوير فروسية القرون الوسطى ، بل يتخطى ذلك إلى حد أن تحسبه إحساساً جديداً بمحاسن الطبيعة التى جملته » (١)

---

(١) نظرات فى تاريخ الأدب الأندلسى ص ٣٤٠

والحق أن الشعر الأندلسي كما يقول الرافعي : « يمتاز بتجسيم الخيال النحيف ، واحاطته بالمعاني المبتكرة التي توحي بها الحضارة ، والتصرف في أدق فنون القول ،واختيار الالفاظ التي تكون مادة لتصوير الطبيعة ، وإبداعها في جمل وعبارات تخرج بطبيعتها كأنها التوقيع الموسيقي ، بل هي تحمل على التلحين بما فيها من الرقة والرنين ، ولا يشاركهم في ذلك إلا من ينزع منزعهم ، ويتكلف أسلوبهم ، لأن جزالة اللفظ في شعرهم إنما هو في روعة موقعه ، وحلاوة ارتباطه بسائر أجزاء الجملة ، وتلك فلسفة الجزالة ، ومن أجل ذلك أحكموا التشبيه وبرعوا في الوصف ، لانهما عنصران لا زمان في تركيب هذه الفلسفة الروحية التي هي الشعر الطبيعي » (١)

بحسب الشعراء الأندلسيين أنهم عبروا عن عواطفهم، وترجموا عن مشاعرهم وتغنوا بالطبيعة ، وشدوا بالحب ، وكل ذلك في حلاوة لفظ ، وطريف معنى ورقة اسلوب ، ودقة صنعة ، وبحسب الأدب العربي ما كان لهم من الفضل في تأثر الادب الغربي به ، واستمداده منه حتى قال قائلهم : « كانت أشعار شعراء جنوب فرنسا خلوا من القافية ، فاقتبسو من عرب الأندلس ؛ بطبيعة الجوار والخلاط ؛ كما اقتبسوا في النظم أنواع الغزل والمدح والهجاء » (٢)

وقال « لويس فياردو » : « كان الشعر الفرنسي على مثال الشعر الاسباني المأخوذ عن الشعر العربي لا عن اليوناني ولا عن الروماني ، ولقد أخذنا صناعة الشعر والقوافي عن العرب » (٣)

ويقول استانلي بول : « أما الأدب العربي فإن أوربا لم ترَ في عهد من عهودها حفاوة بالأدب وأهله كما رأت في الأندلس ، حين كان الناس من كل طبقة ينظمون الشعر ويظن أن هذا الشعر هو الذي أوحى للشعراء المغنين بأسبانيا بأناشيدهم القصصية وأغانيهم ، وهو الذي حاكاه شعراء : بروفانس وايطاليا » (٤)

---

(١) تاريخ الأدب للرافعي حـ٣ ص ٣١١

(٢) تاريخ الأدب للزيات ص ٣١٠

(٣) ترجمة الزيات في كتابه السابق ص ٣١٠

(٤) قصة العرب في أسبانيا ص ١٣٣

والمسيو « كور » ناشر ديوان ابن زيدون وجارثيا جوميز مترجم قصائده الى الشعر الاسبانى يريان « أن ابن زيدون واترابه الاصل البعيد لشعر هؤلاء المغنين الجوالين وهم شعراء « التروبادور » لأن فيها وقاراً وتساميا بقربانها من الحب المحتشم الذى يشيع فى الأشعار التى ذاعت فى جنوبى أوربا منذ القرن الثانى عشر » (١)

الدكتور

حسن جـــاد حسن

الأستاذ المتفرغ بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين

(١) مجلة الثقافة يناير ١٩٤٦